

إشكاليات التوظيف الحدائري للسيرة النبوية

أ.م.د. مجيد حميد ناصر

الجامعة العراقية / كلية أصول الدين





إشكاليات التوظيف الحدائي للسيرة النبوية

ملخص البحث

بسم الله الرحمن الرحيم

تهدف هذه الدراسة إلى حصر الإشكاليات التي حاول بعض الحدائين العرب الصاقها بالسيرة النبوية ومتن الحديث الشريف، وقد خلصت الدراسة إلى أن لفظ الحدائنة قد انتشر في عصرنا الحالي انتشاراً واسعاً في الأوساط الإعلامية والأدبية في الدول العربية والإسلامية، حين راهن الحدائون على تقديم مشروعهم الفكري، على أسس تعادي مبادئ الشريعة الإسلامية في السر، وتحارب المثل التي جاءت بها هذه الشريعة، بعد أن وُصفت تلك المثل بالرجعية والتخلف، وكان لمتن الحديث الشريف مكانة مهمة في تصورات من يطلق عليهم بالحدائين، وتكمن مشكلة الدراسة في التساؤل الرئيس المتعلق بكيفية توظيف الحدائين للسيرة النبوية وإشكالياتها. وأشارت فرضية الدراسة إلى أن الفكر الحدائي يعد من التحديات الرئيسية للأمة الإسلامية كونه يستهدف التأثير على الدين الإسلامي، والتقليل من شأن السيرة النبوية والحديث الشريف وعلومه. وتأتي الدراسة لترتكز على موضوعها حسب الحدود المبينة فيه، الوقوف على تأويلات الفكر الحدائي للسيرة النبوية. وتهدف إلى بيان مواقف الحدائين العرب من السيرة النبوية منهجاً وتطبيقاً، والتعرف على الأسس المعرفية لتجاوزات الفكر الحدائي على السيرة النبوية، وشبهات هذا الفكر تجاه السيرة النبوية والتأويلات الخاطئة التي صدرت عن الحدائين. ومناقشة الأفكار التي حاول الحدائون التسلسل منها إلى السيرة النبوية .

تمهيد

تعددت وسائل الطعن في العقيدة الإسلامية واختلفت طرقها ومقاصدها، وزاد التشكيك في السنة النبوية وحجيتها، وهدم الفقه وأصوله، وتشويه التاريخ الإسلامي وعهوده، لكن البلية العظمى والخطب الجلل حصل مع الطامة الكبرى التي وجه بها الباطل الأثيم سهامه إلى القرآن الكريم والذكر الحكيم، الذي ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۖ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٢].

إن هذا هو الإبتلاء الحق الذي ابتلي به الإسلام على يد من يدعون بأنهم حملة الثقافة الإسلامية من الذين يأترون بأمر الأعداء عارفين أو جاهلين، ذلك ما جاء به نفر من العارفين المتقولين الذين ينتمون لجلدة بني البشر ويتكلمون بلسان عربي مبين، تربوا في المدارس الماركسية والمادية والإلحادية، وحرّفوا الكلم عن مواضعه، وباسم الاجتهاد والتجديد والعقلانية، ووقفوا ضد الأحكام النهائية القرآنية.

أما الجاهلون؛ فإنهم علماء أفاضل وشيوخ نبلاء، لا يشك أحد في صدقهم وإخلاصهم للدين ودفاعهم الغيور عنه، إلا أنهم خدعوا ببعض الشبهات، وأحسنوا الظن ببعض المقولات الخبيثة، ودفعهم حبهم لخدمة الإسلام إلى محاولة التقريب بين الفكر الإسلامي والفكر الغربي معتقدين أن ذلك يخدم الدعوة، ويقرب وجهات النظر، ويزيد الداخلين في دين الله أفواجاً من الغربيين، لكنهم غفلوا عن قوله تعالى: ﴿ وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنَّ آتَيْتُ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [البقرة: ١٢٠].

وبهذا وغيره يصرح الحدائون في بلاد الإسلام دون خوف أو مواربة بأن دعوتهم تقوم على أساس الثورة والتمرد على التراث والماضي بكل صوره وأشكاله، وهم في ذلك صورة للحدائين الغربيين الذين كانوا نتاج ثورة فكرية ملحدة على تعاليم الكنيسة. فليست الحدائة - كما يجب أن يصورها البعض - خروجاً عن الشعر التقليدي إلى الشعر الحر، والاستعاضة بالعامية عن الفصحى فحسب، بل هي أشمل من ذلك وأوسع، فهي ثورة على القديم كل القديم بما في ذلك الدين واللغة والشعر، بل وحتى الأعراف والتقاليد، فنظرة الحدائين إلى الدين مثلاً نظرة ملحدة، لا تعترف له بالقداسة والعصمة؛ لا

في أخباره ولا في أحكامه. فعلى سبيل المثال دعا أحد كبار الحداثيين إلى عدم اعتبار القصص القرآني ثابتاً تاريخياً حتى يثبتته البحث العلمي كما زعم^(١).

ولا يخفى مروق هذا النهج وخروج صاحبه عن الإسلام، فهو مبني على الشك في خبر الله عز وجل، المنزه عن الكذب سبحانه وتعالى. فمنذ أواخر ستينيات القرن العشرين تطفل ما يطلق عليهم جزافاً الحداثيون-المستغربون- العرب على الدين الإسلامي واستباحوا بقلمهم القرآن وعلوم الأمة التأصيلية من أصول فقه وعلوم قرآن وغيرها، إذ كرس هؤلاء الحداثيون جهدهم لترسيخ رؤية جديدة للقرآن الكريم تتناقض مع الفهم الإسلامي الذي ينظر إلى القرآن على أنه كلام الله الواجب الإيمان به والعمل بأوامره والانتهاج بنواهيه، لتقوم على النقد والحذف والإضافة، أو الطعن مباشرة في صحة المصحف، والسيرة النبوية وعلوم الحديث الشريف، كما تصدى لذلك أحد كبار الحداثيين- محمد أركون- عند ادعائه أن المصحف ما هو إلا نتاج ظروف تاريخية محكومة بأغراض المؤرخ وأهدافه الخاصة، أو نفيه أن يكون القرآن كلام الله، أو حتى أن يكون هناك إله متعال، أو كما يدعي الحداثي نصر أبو زيد من خلال ترسيخه فكرة أن القرآن هو حصيلة تراكمات تاريخية ومعاناة قاسية للمجتمع العربي، ظهرت في اللحظة المناسبة في السيرة النبوية على لسان محمد صلى الله عليه وسلم في شكل نص أدبي.

ومع تنامي هذه الظاهرة صار من فروض الكفاية على المسلمين الغيورين على علومهم دراسة هذه الظاهرة، والرد عليها. إذ إن مصادر الشريعة الإسلامية جاءت بأحكام عظيمة فيها من الحفظ للمجتمع والضرب على أيدي السفهاء ما يجعل مثل هؤلاء يقفون قبل أن يفكروا في الحديث عن زندقته، ومن هذه الحدود العظيمة حد الردة الذي يقيمه ولادة المسلمين عبر عصورهم المختلفة تظهيراً للأرض من الأنجاس الذين أعلنوا عداوتهم لله رب العالمين وذلك بعد أن يقيموا عليهم الحجة ويرفعوا عنهم المحجة .

لذا؛ تأتي هذه الدراسة لتعرض بعضاً من الإشكاليات التي أوجدها الفكر الحدائي تجاه السيرة النبوية من شبهات وتجاوزات وأقاويل باطلة .

مشكلة الدراسة وأسئلتها

يمثل فكر الحدائين مرحلة انقطاع معرفي عن الفكر الديني برمته، ويتصل بالفكر العلماني الوضعي، وذلك لعدائه المعلن مع التراث الذي تقوم عليه المصادر المعرفية، سواء في كتب التفسير للفقهاء الأعلام أو في كتب ابن خلدون الأربعة أو في اللغة المؤسساتية والفكر الديني القائم على التوحيد لله الذي هو مركز الوجود، بينما يعتمد الحدائون مصادر معرفية تقوم على اللغة البكر، والفكر العلماني، وكون الإنسان مركز الوجود، لذا أصبح توجههم الفكري يمثل إشكالية كبيرة في مراحل تطور الفكر البشري، فهم يتمتعون بأفكار (أوغست كونت) الذي يعد رائد الفكر الحدائي الغربي الجديد بعد تصديه للفكر اللاهوتي والنظام الأصولي المسيحي. ولهذا فقد وضعت هذه الدراسة على عاتقها الولوج إلى أفكار الحدائين العرب الذي تأثروا بالحدائفة الغربية للتعرف على الإشكاليات الكبيرة والمتنوعة القائمة في فكر هؤلاء الحدائين والسعي لكشفها، وفق ما تقتضيه الأمانة العلمية القائمة على توجهات العقيدة الإسلامية.

وتكمن مشكلة الدراسة في الإجابة عن التساؤل الرئيس المتعلق بكيفية توظيف الحدائين للسيرة النبوية وإشكالياته؟ ومن خلال هذا التساؤل برز عدد من الأسئلة الفرعية التي تحاول هذه الدراسة الإجابة عنها، وهي كالآتي :-

١. ما مواقف الحدائين العرب من السيرة النبوية منهجاً وتطبيقاً؟
٢. ما الأسس المعرفية لتجاوزات الفكر الحدائي على السيرة النبوية؟
٣. ما شبهات الفكر الحدائي تجاه السيرة النبوية؟

أهمية الدراسة

١. تكمن الأهمية النظرية للدراسة بكونها تسهم في تعميق الفهم لدى الباحثين في أصول الشريعة وعلوم الحديث الشريف عن السياسة المتبعة من قبل الحدائين في طرح أفكارهم عن السيرة النبوية من منظور معاصر.

مجلة كلية العلوم الإسلامية
إشكاليات التوظيف الحدائي للسيرة النبوية

٢. تقدم الأهمية العلمية للدراسة خيارات عدة مبنية على أسس قد تكون ذات فائدة للفقهاء في الأمة الإسلامية، عن طبيعة الدور الذي يلعبه الفكر الحدائي في تشكيل صورة الدين عبر استغلال أفكار الفكر الحدائي المعاصر للتأثير السلبي على أبناء الأمة الإسلامية.

٣. توفر الأهمية العملية للدراسة فرصة للمهتمين والمتابعين للشأن الديني الإطلاع على قدرات الفلاسفة الحدائين في استخدام جميع الوسائل السياسية والاقتصادية والاجتماعية من أجل الوصول إلى أهدافهم وتوضيح أفكارهم.

أهداف الدراسة

تهدف هذه الدراسة إلى تحقيق جملة من الأهداف تتمثل بالاتي:

١. بيان مواقف الحدائين العرب من السيرة النبوية منهجاً وتطبيقاً.
٢. التعرف على الأسس المعرفية لتجاوزات الفكر الحدائي على السيرة النبوية .
٣. تسليط الضوء على شبهات الفكر الحدائي تجاه السيرة النبوية.
٤. الوقوف عند التأويلات الخاطئة التي صدرت عن الحدائين.
٥. مناقشة الأفكار التي حاول الحدائون التسلل منها إلى السيرة النبوية .

منهجية الدراسة

تم استخدام المنهج الوصفي التحليلي الذي يتضمن دراسة الحقائق المتعلقة بطبيعة موقف الحدائين من القضايا التي تناولتها الدراسة، وكان الهدف من ذلك وضع تشخيص لآراء هؤلاء الحدائين التي وردت في مؤلفاتهم أو مقالاتهم، إذ جرى تحديد عينة محددة من الحدائين، بالإضافة إلى المنهج الإستدلالي الذي يأتي للتدليل على طروحات وأفكار ومواقف الحدائين .

محددات الدراسة (صعوبات الدراسة)

واجهت الدراسة عدداً من المحددات كان من أبرزها :

مجلة كلية العلوم الاسلامية
إشكاليات التوظيف الحدائي للسيرة النبوية

١. صعوبة الإطلاع على جميع المؤلفات التي أصدرها الفكر الحدائي لمعرفة النوايا الحقيقية التي تقوم عليها التوجهات الفكرية للحدائين.
٢. عدم وضوح المسار الحقيقي الذي تسعى له مجموعة المفكرين الحدائين ومريديهم، وذلك نتيجة لاتباعهم وسائل علمية حديثة، من أبرزها تأييدهم المفسرين والفقهاء التاريخيين في بعض المواقف، ونشر أفكارهم من خلال تلك المواقف تجاه قضايا فقهية وعبادية عديدة.
٣. التجاهل المتعمد أو غير المتعمد من قبل عدد من رجال الدين والمتقنين الإسلاميين والباحثين للطروحات الصادرة عن المفكرين الحدائين .
٤. اتباع الفلاسفة الحدائين الأسس والضوابط العلمية والمنهجية في طروحاتهم حول القرآن الكريم وعلومه، والسيرة النبوية وعلوم الحديث الشريف بما لا يتعارض مع توجهات السواد الأعظم من أبناء الأمة الإسلامية من الذين لم يتلقوا معارف كافية في أصول الدين وفروعه.
٥. انقسام الآراء حول ما يبديه بعض المفكرين الحدائين بين مؤيد ومعارض، ومعتدل ومتطرف، الأمر الذي يثير زوابع للجدل ويثير الحيرة في نفوس أعداد كبيرة من أبناء الأمة الإسلامية.
٦. الحاجة إلى دراسة كتب المفكرين الحدائين ومؤلفاتهم، وفحصها من قبل علماء متخصصين في قضايا الشريعة والفقه الإسلامي.

مصطلحات الدراسة

أولاً: الإشكالية: هي سؤال أو تساؤلات تحتاج إلى إجابة، أو بصورة أخرى هي فراغ أو نقص في المعارف العلمية حول مسألة معينة تحتاج لمن يملأ ذلك الفراغ بإضافات جديدة. وللإشكالية تعريف عديدة، لكن التعريف الذي تقدمه موسوعة المعارف هو الأقرب إلى واقع البحث لأنه يحصر الإشكالية في "مجموعة أسئلة تتعلق بموضوع معين" (٢) .

مجلة كلية العلوم الاسلامية إشكاليات التوظيف الحدائي للسيرة النبوية

وتوصل الباحث إلى تعريف الإشكالية : " نص مختصر يصاغ في شكل سؤال يحتوي على مشكلة، تتعلق بمجموعة العلاقات القائمة بين أحداث وأفعال ومكونات مشكلة معينة.

ثانياً : التوظيف : مفردة التوظيف في اللغة: " مستدق الذراع، والساق من الخيل والإبل، وجاءت الخيل وظيفاً: أي يتبع بعضها بعضاً. والوظيفة والمواظفة أي: الموافقة، والموازرة والملازمة، واستوظفه أي: استوعبه " (٣) . و" جاءت الإبل على وظيف واحد إذا أتبع بعضها بعضاً، كأنها قطار، وجاء يظفه أي: يتبعه ويقال: وظف فلاناً فلاناً يظفه وظفاً إذا تبعه مأخوذاً من التوظيف " (٤). ومر يظفهم أي: " يتبعهم كأنه يجعل وظيفه بإزاء أوظفتهم " (٥).

وتوصل الباحث إلى تعريف التوظيف بأنه : " تلك الوظيفة التي تتعلق بالموازرة، إذ إن وظيفة الساق هي الموازرة والدعم؛ فالتوظيف الأخذ بما يقوي ويعضد ويؤازر، والأديب أو الكاتب يعمد إلى توظيف ما يدعم فنه ويؤيد كلامه، أي: يأخذ شيئاً ويضعه مكان أمر ما بصورة معينة لغرض معين".

ثالثاً : الحداثة : انتشر لفظ الحداثة في عصرنا الحالي انتشاراً واسعاً في الدول العربية والإسلامية، وشغلت هذه اللفظة رقعة واسعة في الأوساط الإعلامية والأدبية، وكان لها بريق جذاب اخذ بالنفوس، في حين راهن الحداثيون على تقديم مشروعهم الفكري، على أسس تقويم وتعديل بعض الأفكار المتعلقة بمبادئ الشريعة الإسلامية ، والتصدي إلى المثل القديمة المترسخة لدى بعض الناس عن هذه الشريعة، بعد أن وصفت تلك المثل بالرجعية والتخلف، مع مقارعة أفكار عدد من الفلاسفة والمفسرين الإسلاميين التقليديين، ولم تقتصر الحركة الحداثية على التصدي لأعلام الفكر الإسلامي من الأحياء الفاعلين في الواقع، بل تعدت إلى التراث والمناهج التي أنتجها الفكر الإسلامي بوصفها العامل المكون لعقلية الحداثيين الإحتجاجية، التي لاحظت ضعف التكوين الفكري الحديث للشعوب العربية والإسلامية، أمام الهجمات الفكرية المناوئة للإسلام ، وقد نجحت حركة الحداثة في مواقع كثيرة وتمكنت من بهر الأبصار والأخذ بألباب الشعوب، فصاغت منهجها الذي سعت لطبعه في عقول أبناء الأمة الإسلامية، من أجل حملهم على التنكر لكثير من المفاهيم المتعلقة بالتراث.

وتلتقي حركة الحداثة مع الفكر العلماني بكونهما انتقلا إلى الشرق في بداية القرن التاسع عشر، ويشكل أساسي إلى مصر وتركيا وإيران ولبنان وسوريا وتونس، ولحقت بها العراق في نهاية القرن التاسع عشر، أما بقية الدول العربية فقد انتقلت إليها العلمانية في القرن العشرين، وقد كان إلغاء الحكم بالشريعة الإسلامية هو المعيار لرفع الدول للشعار العلماني العلني، وسيطرة الفكر العلماني على كبار العاملين في الدول المستهدفة، فألغت الجزائر الحكم بالشريعة الإسلامية عام (١٨٣٠)، وأدخل الخديوي اسماعيل في مصر القانون الفرنسي عام (١٨٨٣)، وأدخلت تونس هذا القانون عام (١٩١٣)، فيما لبست تركيا وسوريا ولبنان الثوب العلماني بعد إلغاء الخلافة عام (١٩٢٤).

ونهب المشروع الحدائي تجاه الفكر الإسلامي من أجل نقض بعض المقولات القديمة في هذا الفكر، من خلال السعي لإقامة علاقة جديدة مع التراث الإسلامي ومناهجه، يكون الغرض من هذه العلاقة ظرفياً عابراً، وليس استصحابياً يراد منه النفع والإنتفاع، فكانت سهام النقد الموجه من قبل الحدائين تعتمد الأسلوب المعاصر في تناولها لبعض العبارات الدينية، بالاستناد إلى الأسس الفكرية التي يعتنقها أغلب الحدائين العرب، الذين لم تقتصر دعواهم على فهم القرآن والسيرة النبوية فهماً حداثياً، وعلى نقد المناهج القديمة وإقصائها، بل تعدوها إلى استبعاد المفهوم والتصور السائد عن القرآن الكريم والسيرة النبوية، واستبدالها بتصور يتماشى والغرض الذي يصبون إليه.

رابعاً: الحدائون: هم طائفة من الكتاب درسوا أفكار بعض الفلاسفة الغربيين الذين لم يكونوا على وفاق مع الإسلام، وتعلموا على يد بعض الفلاسفة العرب والمستشرقين من الذين حاولوا تصحيح بعض الأفكار المتعلقة بمبادئ الإسلام، لذلك كان لتلاميذهم من العرب مواقف مثيرة للجدل^(١).

والحدائون مصطلح مأخوذ من مفردة الحداثة التي هي مصدر من الفعل " حَدَّثَ "، وتعني نقيض القديم، والحداثة أول الأمر وابتدائه، وهي الشباب وأول العمر، ويترادف مفهوم الحداثة مع مصطلح الإصلاح، وقد انطلق مشروع الإصلاح الديني في الفكر المعاصر نهاية القرن التاسع عشر،

وأنجزت الحركة السلفية في بداياتها خطاباً توفيقياً، نزع نحو بناء شكل من أشكال الموازنة بين قيم الإسلام وقيم الفكر الحديث والمعاصر، وقدم محمد عبده مشروعه الإصلاحى الذى كان يروم تكيف المجتمع الإسلامى ومبادئ العقيدة مع مقتضيات الأزمنة الحديثة ومتطلباتها، فى روحه العامة صورة لنمط فى التوفيق مكافئ للمعطيات وللشروط التاريخية التى سمحت بتبلوره، لكنه استنفد قيمته الإصلاحية المتدرجة، ورصيده النظرى الموصول بزمانه، وأصبح الفكر بعده فى حاجة إلى بناء مواقف أكثر قدرة على مواجهة أسئلة الزمن المعاصر، وطموحات العصر بمنطق وأدوات أخرى فى الفهم المتعقل والعمل. وبرز فى هذا التوجه الإصلاحى الجديد مشروع نقد العقل العربى الإسلامى الذى بلورته أعمال محمد عابد الجابرى ومحمد أركون، وظهر بصيغ أخرى فى إسهامات الفكر النقدى العربى المعاصر فى مختلف تجلياتها النصية المتشكلة فى نهاية الربع الأخير من القرن العشرين، وهو الأمر الذى أسهم فى تعزيز جبهة العمل الفكرى فى مجال الحدائى، وذلك رغم مظاهر التراجع التى ارتبطت بظهور تيارات معادية للعقلانية الحديثة والمعاصرة^(٧).

وبهذا لم تعد لفظة الحدائى اليوم تدل على المعنى اللغوى لها ولم تعد تحمل فى حقيقتها حلاوة التجديد، ولا سلامة الرغبة، إنها أصبحت رمزاً لفكر جديد، يبرز تعريفه فى كتابات دعائىها وكتبهم، فالحدائى تدل اليوم على مذهب فكرى جديد يحمل جذوره وأصوله من الغرب، بعيداً عن حياة المسلمين وبعيداً عن حقيقة دينهم، ونهج حياتهم، وظلال الإيمان والخشوع للخالق الرحمن^(٨).

أما تعريف الباحث للحدائى: هى حركة فكرية لها توجهات دينية وسياسية واجتماعية وفلسفية وأدبية، تحمل صفة التجديد والتطوير للمفاهيم والقوالب القديمة، رغم أن عدد من روادها درس فى مدارس غربية وأخرى استشراقية إلا أنها أخذت تلامس قضايا لها علاقة بالثوابت الدينية، مما أدخلها فى إشكالية الجدل والخصومة مع كثير من رجال الدين والباحثين فى القضايا الدينية.

مجلة كلية العلوم الإسلامية
إشكاليات التوظيف الحدائي للسيرة النبوية

الدراسات السابقة

- دراسة عبد السلام العبيكان (٢٠٠٦): المسلم مأمور بالقرآن باتباع السنة : جاءت هذه الدراسة رداً على دعاوى انكار السنة النبوية، من قبل الشيخ نهرو طنطاوي الذي قال في مقابلة مع صحيفة الشرق الأوسط في عددها الصادر ٢٧ نيسان ٢٠٠٦، ذكر فيها من أن السنة والإجماع والقياس والاستنباط وغيرها من صنع الفقهاء والمجتهدين، وأن القرآن هو المصدر الوحيد للتشريع الإسلامي، وهذا القول ليس بجديد بل هو من جنس قول الخوارج الذين قالوا «حسبنا كتاب ربنا» وأنكروا سنة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ولعظم خطرهم على الإسلام والمسلمين أمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتلهم، كما في الأحاديث الصحيحة.
- دراسة الجيلاني مفتاح (٢٠٠٦) : الحداثيون العرب في العقود الثلاثة الأخيرة والقرآن الكريم والسنة النبوية: احتوت هذه الدراسة وهي عبارة عن كتاب يتضمن ستة فصول، هي : المقدمة، والإطار التاريخي للتفسير الحدائي، والحداثيون ومناهج التفسير، تضمن توطئة، ومفهوم القرآن الكريم، والسنة النبوية لدى كل من الحداثيين: محمد شحرور ومحمد أبو القاسم حاج حمد، والنسخ لدى كل من الحداثيين : نصر حامد أبو زيد وسيد محمد القمني وأبو القاسم حاج حمد ومحمد شحرور، واللغة لدى كل من الحداثيين: محمد عابد الجابري وحسن حنفي. وجاء في الفصل الرابع : منهج الحداثيين في فهم القرآن، وتضمن الفصل الخامس: قضايا عقدية تطبيقية من خلال القصص القرآني، وتضمن توطئة مع تناول عدد من الحداثيين لقصص كل من الأنبياء: آدم ، ونوح وإبراهيم ، وموسى عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام، أما الفصل السادس: قضايا فقهية تطبيقية، تضمن ما تناوله محمد أركون ومحمد الجابري لميراث المرأة، وحسين أمين ومحمد شحرور لحجابها، والصادق بلعيد وحسين أحمد أمين لحد السرقة.
- دراسة أنس سليمان المصري (٢٠١٠) : منطلقات الحداثيين للطعن في مصادر الإسلام: هدفت هذه الدراسة توضيح مفهوم الحدائنة ونشأتها، والكشف عن هويات وعقول أصحابها، وتحليل أصولها ومصادرها، وطريقة انتقال عدواها إلى بعض المستغربين العرب. وركزت الدراسة

على أساليب نقدهم، وقواعد تعاملهم، ودوافع نبذهم لنصوص الشريعة، وآثار ذلك المنهج، والآليات القويمة في التعامل معها. وتناولت الدراسة بعض منطلقات الحدائين الفكرية ومنها : انعدام الدليل النقلي الخالص ، تحريف شروط أصحاب الصحيح، والادعاء بعجز علوم الإسناد عن تمييز الأحاديث الصحيحة ، وذلك من خلال ما أدلى به بعض الحدائين ومنهم حسن حنفي وخالدة سعيد وطه حسين وعلي حرب ومحمد أركون ومحمد ضرور.

- دراسة الحارث فخري عيسى عبد الله (٢٠١٣) : الحداثة وموقفها من السنة: هذه الدراسة، هي في الأصل رسالة دكتوراه ، وقد هدفت إلى معرفة مدى ملائمة موقف الحدائين العرب من السنة النبوية، ومدى صلاحية تطبيق مناهج الحدائين على النص الإسلامي. وقد توصل الباحث بأن الحدائين العرب قد استقوا حداثتهم من النموذج الغربي دون أن يساهموا في صياغتها بشيء، ودون مراعاة السياقات العربية التي طبقت بها، وهكذا وبسبب الاختلاف الجوهرى بين النصوص الإسلامية والغربية، فإن مناهج النقد الحداثية لا تصلح للتطبيق على السنة النبوية والنص الإسلامي عموماً. وطالبت الدراسة بتطبيق منهج النقد الإسلامي بعد تجديده وتطويره.

الإطار النظري لفكر الحدائين

يمثل اوغست كونت (١٧٩٨-١٨٥٧) إحدى اللحظات أو المحطات الأساسية في تاريخ تشكل الحداثة الغربية. فهو مؤسس الفلسفة الوضعية التي سيطرت على فرنسا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وولد كونت بعد الثورة الفرنسية مباشرة، وكان يعرف أنه ينبغي بناء نظام جديد على أنقاض النظام الإقطاعي واللاهوتي المسيحي القديم الذي أطاحت به الثورة. وكان يعتقد أن على العلم أن يقدم للمجتمع الصناعي الذي كان في طور التشكل مشروعيته ووحدته المتماسكة. فالنظام الأصولي المسيحي السابق كان يشكل أيضاً وحدة متماسكة ورؤياً متكاملة للعالم وليس من السهل الحلول محلها. نقول ذلك وبخاصة أنها متجذرة في العقلية الجماعية منذ مئات السنين.

هذا هو التحدي الكبير الذي كان مطروحا على جيل أوغست كونت، ولكن بما أنه كان تلميذاً وسكرتيراً للفيلسوف الكبير سان سيمون (١٧٦٠-١٨٢٥) فإنه كان يعرف أن العلم وحده لا يكفي، وإنما ينبغي تأسيس دين جديد يتناسب مع هذا المجتمع الوليد في أوروبا. ولذلك، فبعد أن أسس علم البشرية ودعاه بالسوسولوجيا، أي علم الاجتماع، فإنه راح يؤسس في نهايات حياته دين البشرية الذي ينبغي بحسب نظره أن يحل محل المسيحية التقليدية، ففي رأيه إن العلم والدين ليسا متناقضين وإنما متكاملين، ولكن ينبغي تشكيل دين جديد يشمل البشرية كلها وليس فقط إحدى فئاته أي المسيحيين هنا، وهذا الدين ينبغي أن يكون خالياً من الطائفية والتعصب^(٩).

أما شارل بودلير (١٨٢١ - ١٨٦٧) وهو أديب فرنسي أيضاً نادى بالفوضى الجنسية والفكرية والأخلاقية، ووصفها بالسادية أي مذهب التلذذ بتعذيب الآخرين، له ديوان شعر باسم أزهار الشر مترجم للعربية من قبل الشاعر إبراهيم ناجي، ويعد شارل بودلير من مؤسسي الحدائثة في العالم الغربي .

وفي العالم العربي دعت مجموعة من الباحثين الدارسين في الغرب إلى الحدائثة ونشرها في العالم العربي، فلا يكاد يخلو بلد عربي من عشرات الحدائثيين الذين اعتنقوا الفكر الحدائي وأصبحوا دعاة إليه في كثير من الوسائل، ويجد المتأمل دعاة الحدائثة في قسمين، هما^(١٠):

١. القسم الأول: رواد ومفكرون تربوا زمناً طويلاً على الفكر الحدائي وتشربته عقولهم واقتنعوا به فأصبح مهمم بث الحدائثة والتنظير لها.

٢. القسم الثاني: أتباع رفضوا الفكر العقدي والروحي القديم، بعد أن ضعفت لديهم تفسيراته لكثير من الأحكام، وحاولوا معالجة ما يجدونه في ذلك من ضيق، بالمخالفة للنمطي والسائد والتمرد على المؤلف والموروث، فهذا أقرب طريق للبروز والشهرة، فكانت الحدائثة هي المسلك الحاضر والمركب السهل، فاستغل أولئك الرواد حالة هؤلاء الضعف لديهم، فكالوا لهم المديح وعدوهم " شباباً واعداءً و صفوة مثقفة ونخبة برجوازية جديدة وما إلى ذلك من الأوصاف التي غررت هؤلاء

مجلة كلية العلوم الاسلامية
إشكاليات التوظيف الحدائي للسيرة النبوية

الأتباع ، فأصبحوا ينادون بكل ما يسمعون من أسانذتهم من مخالفات عقيدية وشرعية وسياسية، ونحو ذلك.

ويمكن القول أن الحداثة بالمفهوم المعاصر بدأت مع بدء ما يسمى بحركة النهضة العربية الإسلامية متمثلة في رفاة رافع الطهطاوي، وجمال الدين الأفغاني، ومحمد عبدة، وهو ما أشار إليه المؤرخ الإنجليزي (ديزموند ستيوارت) في تأريخه للحداثة العربية^(١١).

ثم امتدت حركة الحداثة بعد ذلك حتى الوقت الحاضر بعد أن مرت بها عدة أسماء كان لها دور فاعل في الدعوة إلى التغريب وقطع الصلة مع الماضي والأرض والدين، ومنهم - على سبيل المثال: سلامة موسى، وفرح أنطون، وعلي عبد الرازق، وطه حسين، وشبلي شميل، وحسين مروة، وصادق العظم، والطبيب تيزيني، وعبد الله العروي، وحسن حنفي، ومحمد عابد الجابري، ومحمد أركون، ومطاع صفدي، وهشام شراب، وهشام جعيط، .. وغيرهم على اختلاف الرؤى والمنهجيات عند كل منهم^(١٢).

وقد تحول الحداثيون العرب إلى أداة لحماية الأفكار الغربية الفردية البرجوازية في الجانب السياسي، وتقويض البنى الفكرية والفنية التقليدية، وتشابك خليط الثقافات المستجلب عبر وسائل الإعلام التقنية الجماهيرية ومنتجاتها المدعمة للنموذج الثقافي الحدائي الغريب في الجانب الثقافي^(١٣).

المبحث الأول

مواقف الحدائى العرب من السيرة النبوية منهجاً وتطبيقاً

قد يستغرب عموم المسلمين تجاهل الحدائى لتسمية كلام الله المنزل عن طريق الوحي إلى النبي الكريم صلى الله عليه وسلم بالقرآن الكريم، والسيرة النبوية أو الحديث الشريف، ليستعضوا عنهما بمفردة (النص) ، لكن المهتمين والمختصين بالدراسات الإسلامية قد لاحظوا تكرار استخدام هذه المفردة لدى أغلب هؤلاء الحدائى، إذ يقول نصر حامد أبو زيد : " إن العلاقة بين النص والثقافة علاقة جدلية معقدة تتجاوز كل الأطروحات الأيديولوجية في ثقافتنا المعاصرة عن النص ... ". ثم يكرر هذا المعنى عن القرآن الكريم والحديث الشريف، فيقول: " وإذا كانت هذه النصوص قد تشكلت في الواقع والثقافة ، فإن لكليهما دوراً في تشكيل هذه النصوص " (١٤).

ولعل الحديث عن الواقع والثقافة في تشكيل هذه النصوص، يمثل نقطة الانفصال بين منهج الحدائى -نصر أبو زيد- وبين المناهج الأخرى التي يتبناها الخطاب الدينى المعاصر عند مناقشة هذه القضايا، حينما يركز أبو زيد عند مناقشة النصوص الدينية (القرآن والسنة) ليتحدث عن الله سبحانه وتعالى بأنه قائل النص، ثم يلي ذلك الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم بأنه المستقبل الأول للنص .

وعليه أصبح القرآن الكريم لدى الحدائى منتجاً ثقافياً قد تشكل في الواقع فأطلقوا عليه لفظ (النص) وتحاشوا لفظ (القرآن الكريم) ، هذا من جانب الألفاظ ، أما ما يتعلق بالمنتج الثقافى، فقد أجمع المسلمون في كل العصور على اختلاف مذاهبهم وأقطارهم، أن القرآن الكريم قد نزل من الله تعالى إلى الواقع الأرضى والعالم البشرى، وكان له وجود مفارق لهذا الواقع الذى حل فيه وأهبط إليه، وقد أقرت الآيات المحكمات البيئات هذا المعنى وهذه الحقيقة التي لا ريب فيها، من مثل قوله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾
(النساء: ١٣٦).

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ (الفرقان : ١) .

﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضَلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ (الزمر : ٢٣) .

لكن الحداثيون ينقضون هذا إنطلاقاً من كونهم يؤمنون بالمادية الجدلية التي ينادي بها الفكر الماركسي الإلحادي، والتي ترى أن الوعي والأفكار والتصورات الإنسانية من ثمرات المادة، فالفكر عندهم لا يعدو أن يكون انعكاساً لصور الأشياء إلى الدماغ ، والتفكير ليس إلا إعادة لإنتاج الواقع منسوخاً على صفحة الذهن (١٥) .

لذلك فإن فهم الحداثيين للقرآن الكريم يقوم على أنه قد تشكل في الواقع وصعد منه ولم يهبط إليه، وإته لم يكن قبل تلاوة النبي صلى الله عليه وسلم، له وجود مفارق للواقع الذي شكله فتشكل، وفعله فانفعل، نصاً ومفاهيم ودلالات.. فهو عندهم ثمرة الواقع، ولا شيء هناك غير الواقع. أما الإيمان بمصدر إلهي للقرآن ويقداسته، فهو كلام يقال بين الناس، وإن الأخذ به طمس لهذه الحقيقة، وهو ما انتهى إليه هؤلاء عندما أسقطوا المنهاج الماركسي في المادية الجدلية على القرآن الكريم (١٦) .

إن هذا الرأي تجاه القرآن والسيرة النبوية وعلوم الحديث والتي تندرج عندهم تحت اسم النص، قد أفرز عن إطلاق محدد له دلالاته الواضحة ومغزاه العميق، فهم ينظرون إلى القرآن والحديث كما ينظرون إلى النصوص الأدبية، كنص القصيدة والمسرحية والرواية والقصة، بأنها منتجات ثقافية

أنتجها الواقع وكذلك النصوص المقدسة، ولا فرق بينهما!! وهذا ما فعله الحدائي طيب تيزيني عندما نزع صفة القداسة عن القرآن وحمل معنى لفظ الكريم بأنه الجواد المعطاء وبأنه يتسع لكل القراءات لأنه حمال أوجه، وفي كلامه هذا استهزاء بمن يحسن قراءة القرآن تأثراً وعاطفة دون قدرة على القراءة العامة (١٧) .

ويبرز منهج الحدائيون من السيرة النبوية من خلال المواقف الآتية :

١. ترديد تهمة الشعر : يؤكد الحدائيون وجود صلة بين القرآن والشعر الجاهلي، هذه التهمة التي قالها المشركون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه شاعر، وتلقفها المستشرقون، وأخذ الحدائيون يرددونها في كتاباتهم، إذ يعقد الحدائيون هذه الصلة من حيث التركيب مع وجود فوارق نسبية تتعلق بمدى التشكيل من خلال القول أن القرآن قد تشكل في مدى زمني زاد على العشرين عاماً، وتعدد مستويات دلالات القرآن في السياق الخاص بكل جزء من أجزائه، وهنا ينقل محمد عمارة تأكيد الحدائي نصر أبو زيد على كل ذلك بالقول : " إن النص القرآني منظومة من مجموعة من النصوص.. وإذا كان يتشابه في تركيبته تلك مع النص الشعري كما هو واضح في المعلقة الجاهلية مثلاً، فإن الفارق بين القرآن وبين المعلقة من هذه الزاوية المحددة يتمثل في المدى الزمني الذي استغرقه تكون النص القرآني ، كما يتمثل في تعدد مستويات السياق المحددة لدلالة كل جزء من أجزائه .. وهذه التعددية النصية في بنية النص القرآني تعد في جانب منها نتيجة للسياق الثقافي المنتج للنص، لأنها تمثل عناصر تشابه بين النص ونصوص الثقافة عامة، وبينه وبين النص الشعري بصفة خاصة" (١٨) .

٢. أسلوب التناول على مقام النبوة : يجاهر الحدائيون بموقفهم من السيرة النبوية من خلال اتباعهم أسلوب التناول الشديد على السيرة النبوية ومقام النبوة ، عبر وصف هذا المقام الرفيع للنبي صلى الله عليه وسلم وسنته عند المسلمين بأنه وليد مبالغات فارغة وعقائد

شعبية وعقليات دوغمائية (متعصبة للرأي الواحد) ، ويخالف هذا المنهج التطولي أول الأركان التي يقوم عليها الدين الإسلامي، حيث يعلم جميع المسلمين أن شهادة (أن محمداً رسول الله) متممة لشهادة (أن لا إله إلا الله) ، وأنه لا يصح الدخول في الإسلام دون الرضا بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم رسولاً، وأن من مقتضيات الشهادة ضرورة اتباع سيرته قولاً وفعلًا . ومحبته صلى الله عليه وسلم، تصديقاً لقوله في الحديث الشريف (لا يؤمن أحدكم حتى أكون له أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين)^(١٩).

٣. ظاهرة قلة الدين وسوء الأدب مع مقام النبوة: تبدو هذه الظاهرة شديدة الوضوح عند الحدائي محمد أركون، مع وجودها في كتابات الآخرين ، من خلال ذكر النبي صلى الله عليه وسلم باسمه المجرد، أو بأسماء غريبة لا يقال عنها إلا أنها سوء أدب، وقلة دين مثل (البطل ، الوسيط) ، فيما لا يمكن العثور على تسليمة واحدة على النبي صلى الله عليه وسلم وسط كتابات الحدائين الكثيرة، وتعد أقوال أركون خير دليل على ذلك من خلال قوله: " وتتم عملية التوصيل عن طريق وسيط ذي مكانة متميزة وسلبية في آن معاً هو : محمد، إنه مجرد ناقل للوحي. وفي الواقع الجزء الخرافي من سيرة النبي هو الأكثر إضاعة وأهمية، إذا ما أردنا القيام بدراسة النشأة التاريخية والسيكولوجية للوعي الإسلامي " (٢٠) .

٤. وصف القصص القرآني والسيرة النبوية بالأساطير: يظهر التشكيك الحدائي بالسيرة النبوية ومن بينها هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم عبر وصفها بالأساطير والخرافة ، إلى جانب مساواة الوحي بالأساطير التأسيسية وجعلهما في حقل دلالي واحد، ويبرز ذلك في كتابات الحدائين الآتية :

أ. محمد أركون : يقول عن القصص القرآني والسيرة النبوية : " هي تفاسير تهدف إلى التأسيس الذاتي للأمة أو للجماعة ، وهي بمثابة الحكايات التدشينية .. ويتحول كل ذلك فيما بعد إلى لحظة تأسيسية أو تدشينية عظمى لقدرة جماعي. وهذا هو الحال

فيما يخص المنفى بالنسبة إلى موسى، أو الآلام بالنسبة إلى المسيح ، أو الهجرة بالنسبة إلى محمد .. إن الخرافة والتحريف يعبران عن المبالغات والشطحات والتحولات والانحرافات التأويلية التنكيرية التي تصيب الأساطير التأسيسية .. إن الوحي يخلع المعنى على الوجود.. وهذا المعنى قابل للتعديل " (٢١) .

ب. نصر حامد أبو زيد : يرى أن العقيدة مؤسسة بالضرورة على كثير من التصورات الأسطورية في ثقافة الجماعة البشرية ، وهي لذلك مرتبطة بمستوى الوعي لدى هذه الجماعة، متطورة بتطور هذا الوعي، فلا ثبات فيها ، كما هو الحال مع ثوابت الدين، كما نقل محمد عمارة عن نصر ابو زيد قوله : " أن النصوص الدينية قد اعتمدت بلا شك، شأن غيرها من النصوص على جدلية المعرفي والأيدولوجي في صياغة عقائدها، المعرفي التاريخي يحيل بالضرورة إلى كثير من التصورات الأسطورية في وعي الجماعة التي توجهت إليها النصوص بالخطاب " (٢٢) .

ج. محمد أحمد خلف الله : يكرر في رسالته للدكتوراه الموسومة (الفن القصصي في القرآن الكريم) التي رفضت الجامعة المصرية مناقشتها ، بعد أن أثرت حولها ضجة سياسية وقضائية ودينية لم تهدأ رغم صدور ثلاث طبعات متتالية منها على شكل كتاب ، بأن القصص القرآنية قد كتبت بطريقة فنية أدبية ليس غرضها إثبات حقائق تاريخية ، أي إن أغلب قصص القرآن هي أساطير كان هدف النبي منها إثبات أنه مرسل من الله، وإنه - النبي - يعلم قصص أهل الكتاب لأن المعيار في المجادلة ليس إثبات الحق بل المقياس إثبات أنه يعلم ما في السماء يعلم الغيب، والغاية - كما يقول خلف الله - هو الايصال الى المعنى الروحي والعبارة الدينية في هذه القصص وليس إثبات الحق باستخدام وسيلة إدخال الاساطير في القرآن (٢٣) .

د. طه حسين : إدعى طه حسين أن ما نقله محمد في القرآن عن إبراهيم وإسماعيل قد استغل أسطورة اختلقها يهود شبه الجزيرة لإثبات صلتهم بالعرب، وقد رد شيخ الأزهر الأسبق (التونسي المولد الجزائري الأصل) الإمام محمد الخضر حسين ، مفنداً إدعاءات طه حسين التي جاءت بكتابه (في الشعر الجاهلي)، الذي احتوى إنحراف خطير واتباع لأقوال المستشرق الإنجليزي مرجليوث وطعن في القرآن، فاشتد غضب علماء الأزهر حين صدر هذا الكتاب، وأحالوا طه حسين إلى محاكم مصر التي كانت تحت التأثير الإنجليزي فبرأته، وهنا ألف الشيخ محمد الخضر كتابه (نقض كتاب في الشعر الجاهلي)، الذي كان باعتراف طه حسين من أهم الردود عليه وأشدّها حجة^(٢٤) .

وتجد هذه الدراسة لزاماً عليها الإشارة بأن جميع عصور التاريخ منذ نزول القرآن الكريم تكاد لاتخلو من ترديد مثل هذه الأقوال التي لم تعد من الأمور الغريبة، كما أنه من العسير جداً إيجاد عصر واحد خلا من هذه الإدعاءات المشبوهة منذ أن بدأ نشاط الوثنية في شبه الجزيرة العربية في عصر صدر الإسلام ، وهو ما أكده العليم القدير في كتابه العزيز القرآن الكريم في قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ (الأنعام : ٢٥) .

ونتيجة لهذه المعتقدات الفاسدة أصبح من الواضح أن محاولات الحدائبيين في اتباع المنهج التطاولي يفصح عن هدفهم لإسقاط السيرة النبوية وتجاوز الاستدلال بها كأهم مصدر من مصادر تفسير القرآن الكريم، إلا وهو تفسير القرآن بالسيرة النبوية والحديث الشريف، متجاهلين أن جبريل عليه السلام كان ينزل بالسنة المطهرة كما ينزل بالقرآن الكريم ، والمراد من ذلك شرح ما أنزل من القرآن وبيانه، ولا شك أن السنة شارحة للقرآن

مجلة كلية العلوم الإسلامية
إشكاليات التوظيف الحدائي للسيرة النبوية

الكريم، ومبينة له ، فقد قال الله تعالى: ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ (النحل : ٤٤) .

المبحث الثاني

الأسس المعرفية لتجاوزات الفكر الحدائي على السيرة النبوية

أستقى الحداثيون العرب حدائتهم من النموذج الغربي دون أن يساهموا في صياغتها بشيء، ودون مراعاة السياقات العربية التي طبقت بها، وهكذا وبسبب الاختلاف الجوهرى بين النصوص الإسلامية والغربية، فإن مناهج النقد الحدائية لا تصلح للتطبيق على السيرة النبوية والنص الإسلامى عموماً، كما أنه من الجدير بالذكر أن الحدائة الغربية ما هي إلا نتيجة للعقلانية المادية، التي ترى أن الحقيقة تستمد قيمتها من كونها نتاجاً للعقل الإنسانى، بما جعل الذات مركزاً للعالم.

ولأن الحدائة الغربية تتضمن جوانب إيجابية وأخرى سلبية قاتلة، يصبح لزاماً التمييز بينها وبين منجزاتها العلمية والتكنولوجية، وأدواتها الإدارية والمؤسسية. لكن الإشكالية المهمة تبرز في افتتاحان بعض المفكرين العرب ذوي النزعة الوضعية بالحدائة الغربية، إلى درجة أن جعلوها مسلكاً لفهم الإسلام. الأمر الذي سمح لبعض المفكرين الحدائيين العرب بتوظيف سلبيات الحدائة في الجوانب الأخلاقية والإنسانية والبيئية وغيرها، من خلال وضع مشاريعهم الحدائية التي تقويم الإسلام ومبادئه كنفىض للحدائة، ليس على مستوى العالم الإسلامى فحسب، وإنما على مستوى العالم.

إن ما تركه رسول الله محمداً صلى الله عليه وسلم لامته أجمعين، هي المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك. فما هلك من هلك إلا عن بينة، ولا اهتدى من اهتدى إلا عن بينة. أما سبب الإعراض عن الحق فهو الجهل ولا غيره ، كما قال الله تعالى: ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ (الأنبياء: ٢٤).

وقد ضمن الله الهداية لمن كان على مثل ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم، وأصحابه رضي الله عنهم ، كما قد جاء بيانه في حديث الافتراق، وفيه: (وإن أمتي ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة، قالوا: من هي يا رسول الله؟ قال: من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي) (٢٥).

ويتبين الفرق بين أبناء الأمة الإسلامية في مدى تمسكهم بدين الله تعالى القائم على شريعته وبين سواهم ، استناداً إلى منهجية الاستدلال ومنهجية المعرفة بمراد الله تعالى، تلك المنهجية التي توّظرها مرجعية الأصول الأربعة في الاستدلال والاستنباط، والتي هي: الكتاب والسنة والإجماع والقياس. وإن هذه الأصول الأربعة القائمة على الإيمان بالوحي والنبوة، ومنهجية التعامل معها، هي التي تحدد نظرية المعرفة في الإسلام. وعليها يبني حفظ الدين واستمرار الشريعة الإلهية المنزلة على خاتم المرسلين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، التي ختم الله بها رسالاته إلى الناس، وجعلها حجته على خلقه إلى قيام الساعة، وتكفل بحفظها من التغيير والتبديل (٢٦).

وقد أدرك الحداثيون أن العائق الأكبر الذي يقف أمام مشروعهم الحدائي يقوم على هدم البناء الذي تقوم عليه منهجية المعرفة في الإسلام ، لذلك تلقت السيرة النبوية سهام الغدر من شخصيات وأسماء مؤثرة تمتطي صهوة خيال الحدائثة في مسعى منها لإحداث إشكاليات مضافة عبر توظيفها لأبرز منظري الفكر الحدائي للسيرة النبوية التي تمثل الأصل الثاني في تلك المنهجية المعرفية والتي أقام الإسلام عليها تفكيره عبر وسائله الاستدلالية وإجراءاته المنهجية.

ويظهر ذلك جلياً لدى عدد من الحداثيين من خلال طرحهم لبعض الأسس المعرفية التي قاموا بتوظيفها للتجاوز على السيرة النبوية، ومن أبرزهم :

١. محمد أركون : أطلق هذا الحدائي سهامه نحو السيرة النبوية، من خلال تبنيه الأفكار الآتية:
أ. توحيد حقل المعرفة : طالب بتوحيد حقل المعرفة عن طريق إعادة قراءة السيرة النبوية
باتباع منهج الحدائثة الآتي (٢٧):

مجلة كلية العلوم الإسلامية
إشكاليات التوظيف الحدائلي للسيرة النبوية

أولاً: أن يتم دراسة المنشأ النفسي والاجتماعي والثقافي للخيال الإسلامي الشائع، ثم وظائف هذا الخيال.

ثانياً: النظر للسيرة من خلال فن القصص أو أسلوب السرد المأخوذ لموقع أو وسيلة لإنتاج كل دلالة تغذي الخيال بشكل خاص من أجل تشكيل رؤية معينة أو تحويل الماضي من أجل دمجه في النظام الجديد للعقائد والممارسات التاريخية، وهذا ما نقلته السيرة النبوية عن القرآن .

ثالثاً: اتباع الشروط التاريخية والثقافية لتحول الخيال الجماعي وتغيره، أي المرور من الخرافة أو الأسطوره إلى رحلة التاريخ الحقيقي المعاش والمفهوم وكأنه أيديولوجيا.

وبذلك قصد أركون القيام بقراءة النص الديني (القرآن الكريم) والتراث الإسلامي (السيرة النبوية)، على منهج القراءة من خلال ربط الوثائق والنصوص بالمرحلة الزمنية التي كتبت فيها، ووصلها بتعيين طبيعة القوى الاجتماعية السائدة، والحركات الفكرية المتكوّنة في تلك الفترة، وهو هنا يعني أنّ شرط نقد العقل الإسلامي يكون في استخدام هذه المنهجية التاريخية في التدقيق بكل المعطيات التاريخية. وبهذا فقد أنكر أركون أن يكون الإسلام ديناً أبدياً أو أزلياً، بل على العكس، إنه دين يعتمد العقل بنصوصه المؤسّسة ويتطور التشريعات والاجتهادات التي نجمت عنه، هو بالتأكيد عقل له بداية كما له نهاية، أي باختصار هو (عقل يتشكّل في التاريخ).

ب. منهج التفكيك : شدّد أركون على ضرورة أن يكون التوجّه الذي يسلكه الباحث في التراث الإسلامي لا يكفي بجمع المعلومات والوقائع عن السيرة النبوية بمقدار ما يجب عليه الدخول في عملية تفكيكها لاستخلاص النتائج المرجوة منها. ويضيف: إن تفكيك الظاهرة الإسلامية عن طريق تطبيق القراءة التاريخية لها، هو الذي يمكن الباحث تقديم إطاراً فعلياً لتحليل جميع أشكال الخطاب الإسلامي المعاصر على جميع مستوياته، وتأويلها،

وهو وحده الذي يشكل عنصراً حاسماً في مقارعة الفكر الأصولي الذي يهيمن على المجتمعات العربية والإسلامية.

ج. النظرة المعيارية : دعى أركون للنظر إلى السيرة النبوية من خلال كونها معيار منحرف مارسه التفكير الديني لصالح أيديولوجية معينة من خلال تعالي النبوة وتعالى الوحي على التاريخ !! فهو يقول : " بعد أن فهمنا الوحي نستطيع أن نقيس حجم الإنحرافات الأيديولوجية التي تصيب الوحي والوظيفة النبوية عندما يصبحان أدوات متميزة وفعالة لإضفاء السلطة على الأباطورية أو الملكية أو الخليفة " (٢٨) .

٢. نصر حامد أبو زيد: يؤكد هذا الحدائى على ضرورة فهم ظاهرة النبوة المحمدية من خلال ما أطلق عليه الواقع الثقافى الذي ظهرت فيه، لذلك فهو يقرأ مفهوم النبوة من خلال مفهوم الكهانة والعرافة الذي كان سائداً في البيئة الثقافية والاجتماعية العربية التي ظهرت فيها النبوة المحمدية، وهي القراءة التي تنطلق من العلاقة الجدلية بين البنى الفوقية والبنى التحتية التي تشير إليها النظرية الماركسية ، وفي هذا المجال يقول : " الاحفاظ للكهانة والعرافة بمكانهما بعد النبوة يرتد إلى أمرين : الأمر الأول أن الغاء الكهانة يستلزم إلغاء أساسها الوجودي ومن ثم تصبح ظاهرة النبوة ذاتها في حاجة إلى تفسير جديد، الأمر الثاني أن الكهانة والعرافة كانتا معياراً لدى العرب قبل الإسلام لإثبات حقيقة النبوة من جهة ، وكانتا وسيلة للتنبؤ بالشىء الجديد المرتقب من جهة أخرى. وإذا كان إلغاء الكهانة يؤدي إلى إلغاء الأساس الوجودي وكذلك الأساس المعرفي لظاهرة النبوة ، فإن ذلك يؤكد أن ظاهرة (الوحي) استندت إلى مفهوم عميق في الثقافة، مفهوم عن إمكانية اتصال بين البشر وبين العوالم الأخرى من الملائكة والشياطين " (٢٩) .

واستناداً إلى منطق المادية الجدلية التي هي منهج النظرية الماركسية التي يؤمن بها نصر حامد أبو زيد ، فإن ما جاء من رأي في النص السابق يبرز النتيجة الآتية :

- أ. إن النبوة تمثل البنى الفوقية وهي في موقع جدلي مع البنى التحتية التي تجسدها الكهانة والعرافة .
- ب. إن أي تغيير في البنى التحتية فإن البنى الفوقية سوف ينالها التغيير لا محالة.
- ج. إن ظاهرتي النبوة والوحي أصبحتا مرتبطتين ببقاء الكهانة والعرافة.
- د. لقد سعى أبو زيد إلى تقويض البناء المتعالى للنبوة والوحي من خلال إنزالهما إلى الواقع التاريخي وربطهما بمقتضيات الثقافة وتحولاتها.
- أخيراً يبرز التساؤل المهم الذي مفاده : كيف بنى أبو زيد تصوراتته عن عصر الجاهلية بأنهم يسمون وسوسة الشياطين للكهان: (وحيا).
٣. عبد المجيد الشرفي: يقف الحدائى عبد المجيد الشرفي ذات الموقف من النبوة، إذ إنه يغالى في آرائه بهذا الشأن، خاصة تلك التي تناوله كتابه الإسلام بين الرسالة والتاريخ ومن أبرزها (٣٠) :
- أ. أن البيئة التي عاش فيها محمد، يغلب عليها طابع القداسة أو الصبغة السحرية، وإن الذهنية الميثية (الإسطورية) التي من أبرز خصائصها الحدس والتمثل، هي التي كانت تسيطر على معالم التفكير آنذاك، ومن ثم فإن هاتين الخاصيتين هما ما كان يبيلغه النبي إلى قومه.
- ب. إن ما جاء به محمد، ليس سوى نتاج (تخمر) ما تعلمه ممن حوله وما تعرف عليه في أسفاره ومن الأحناف وأهل الكتاب، ومن نتاج تأمله الطويل عندما كان ينقطع عن الناس ويتحنث في غار حراء، كل ذلك تخمر في ذهنه ووصل به إلى الاعتقاد بأن الله قد اختاره لتبليغ رسالته إلى قومه أولاً، وإلى الناس من خلالهم ثانياً!
- ج. إن المسحة الأسطورية التي صبغت الرسالة المحمدية ليست سوى قضية الوحي، وقصة الإسراء والمعراج، ومسألة الحج وعمارة بيت الله الحرام، وهن جميعاً قضايا إيمانية لا تقام عليها دعاوى الصحة والبطلان، وإنما الأمر أن تؤمن بها أو لا تؤمن.

مجلة كلية العلوم الاسلامية إشكاليات التوظيف الحدائي للسيرة النبوية

د. إن محمد مثله مثل أنبياء بني إسرائيل يجتمع معهم في الصدق وحسن الطوية، وقد انتابته حالة من الهلوسة الدينية.

هـ. إن المعارك التي خاضها المسلمون الأوائل كضرورة تاريخية اقتضتها رغبة محمد وأصحابه في توطيد أركان ملكهم شأنهم في ذلك شأن سائر الإمبراطوريات القديمة، وهي ضرورة في سبيل إرهاب خصومهم من أصحاب الديانات الأخرى كاليهود والنصارى.

المبحث الثالث

شبهات الفكر الحدائي تجاه السيرة النبوية

نمت دعوى مراجعة النص الديني (القرآن الكريم والسيرة النبوية) خلال العقود الأخيرة من القرن العشرين، ولعل سبب ذلك يعود لاصطدام الإرث الفقهي الإسلامي الذي يعد نتاج تأويل النص الديني مع أفكار العصر الحديث، فظهرت حركات التجديد وشملت العديد من المستويات، سواء من داخل المنظومة الإسلامية من مفكرين إسلاميين ومحدثين وفقهاء وأصوليين، أو من خارج المنظومة الإسلامية من علمانيين وحدائيين. وكان المحرك الأساسي لكل ذلك يكمن في ما عرف بأزمة حداثة هرمينوطيقية (مبدأ التأويل أو التاويل المرتكز على البنيوية والتفكيك الذي يخضع لذاتية القارئ دون أي اعتبار لمقاصد المتكلم أو الكاتب) بالدرجة الأولى، فسعت هذه الأطراف إلى إعادة تركيب النص الديني من خلال خلق آليات فهم وتاويل جديدة. وداخل هذه الفوضى والتخبط في تجريب العديد من المناهج على النص الديني، ظهرت دعوى مراجعة السيرة النبوية و متن الحديث كمدخل لتخليص الإسلام من قيد الإرث الفقهي، وهي مراجعات لا مفر للفكر الإسلامي أن يخوض غمارها، لكن تبقى منهجية وضوابط نقد السيرة و متن الحديث أهم عقبة تواجه الباحثين في هذا الشأن. ومن هنا انطلق الحدائيين في بث شبهاتهم عن النصوص الدينية سواء كانت نصوص قرآنية أو سيرة نبوية، وارتكز مبعث هذا الانطلاق على النظرة القاصرة التي يحملونها تجاه النبوة ،

مجلة كلية العلوم الإسلامية
إشكاليات التوظيف الحدائي للسيرة النبوية

هذه النظرة التي تقول بأن النبوة إنما هي حالة من حالات الفعالية الخلافة للمخيلة الإنسانية، وأن الفارق بين النبي وبين الشاعر والصوفي والكاهن يكمن في درجة قوة المخيلة لا في الكيف والنوع..!

وفي هذا الصدد نتناول بعض شبهات الفكر الحدائي تجاه السيرة النبوية، والتي من أبرزها :

١. المنهج الاعتباطي في نقد السيرة النبوية

يقصد بالمنهج الاعتباطي الكلام العشوائي غير المنتظم الذي لا علة له ولا تبرير ، وهو المنهج الذي اتبعه الحداثيون في نقد السيرة النبوية عندما حاولوا ايجاد دور لما يذكرونه حول الاستقلالية الفكرية التي يتمتعون بها وبأنهم لا يتبعون لآيديولوجية معينة عند تناولهم النصوص الدينية ! غير أن مفهومهم هذا له جانبان سلبيان فمن جهة أنه مفهوم غير واقعي ومن جهة أخرى أن له إفرزات خطيرة تهدد وعي المسلمين وادراكاتهم الفكرية.

ولا يخفى على الباحثين والدارسين في العلوم الدينية أن تناول النصوص الدينية يتطلب معرفة الاحكام الشرعية التي تستوجب وجود التخصص الدقيق لمن يمارس دور الفقيه، وهو تخصص مبني على عدد من العلوم أبرزها علم الفقه وعلم أصول الفقه وعلم الحديث والنظريات الرجالية المعتمدة ويسبقها إتقان مجموعة من العلوم النحوية والبلاغية والمنطقية عبر مراحل دراسية متعاقبة، فضلاً أن القرآن الكريم قد أقر دور الفقهاء التخصصي بقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ (التوبة : ١٢٢) .

ونتيجة لذلك لا بد من تصور كمية ونوعية الأخطاء التي يقع فيها "الحدائي المستقل" نتيجة إعمال رأيه في آيات الاحكام والاحاديث الشريفة دون الرجوع للمتخصصين من الفقهاء، وفي ذات الشأن فإن القبول بالحديث الشريف والعمل به يعد واجب إذا توفرت فيه شروط الصحة المعروفة عند أهل المصطلح ، والتي من ضمنها السلامة من القوادح ، ولا يجوز إنكار ثبوته، سواء كان في

مجلة كلية العلوم الإسلامية
إشكاليات التوظيف الحدائي للسيرة النبوية

الصحيحين، أو في أحدهما، أو في غيرهما، بل إن إنكاره يعد من العناد والمكابرة. ولكن منكره لا يكفر إلا إذا اعتقد ثبوته إلى النبي صلى الله عليه وسلم ثم أنكره.

وقد أوقع الحداثيون أنفسهم في ورطة اتباع المنهج الاعتباطي في نقد السيرة النبوية عبر إنكارهم لحديث الغار أو إطلاق الأكاذيب والإقتراءات عن السيرة النبوية وهذا الحديث ، ويتضح هذا الأمر في الشبهات الآتية:

أ. إنكار وجود الحديث الشريف : ينكر معظم أصحاب الاتجاه الحدائي للقاء الأول بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وجبريل عليه السلام الذي أجمعت المصادر العلمية التي تناولت السيرة النبوية والأحاديث الشريفة بأنه قد تم في غار حراء، وبذلك لم يتأخر أحد ممن عرفوا منهج النقد الحدائي في إنكار هذه الرواية، وإدعائهم أنها مختلفة مصنوعة وضعت في القرن الثاني أو الثالث من الهجرة لأسباب وأهداف عدة ، وبهذا فقد أصبح الحداثيون يشككون في السيرة النبوية كلها فضلاً عن هذه الحادثة، لأنهم يرون:

- " إن الإقرار بوجود حديث متكامل لفظاً ومعنى مسألة تفتقد المصادقية الوثيقية التاريخية أو على الأقل تستثير تحفظاً وشكاً شديدين " (٣١) .
- " إن تثبيت نص الحديث في الصحاح الخمسة- أو الستة - وعلى رأسها البخاري ومسلم ، هو في حقيقته تثبيت للواقع عند رؤى واجتهادات عصور بعينها " (٣٢) .
- " إن المصدر الوحيد الوثيق للتجلي والوحي، هو إذن القرآن في سورتي التكوير والنجم، وبالتالي فإن قصة غار حراء وما تبعها من اختلاق بحت، ترمز بشكل مسرحي إلى أمور جدية هامة وتعكس آراء وتصورات ظهرت فيما بعد في الضمير الإسلامي " (٣٣) .
- " وبالتالي، فإن قصة الغار، ليست مختلفة فقط، بل هي سخيفة لم تع شيئاً من الأمور " (٣٤) .

ب. إنكار نزول الوحي: إن إنكار الحداثيين لحديث الغار يعني من الأساس إنكار نزول الوحي في تلك الليلة على النبي صلى الله عليه وسلم في مختلاه ومتعبده ، دون تمهيد يشعره بأن أحداً

مجلة كلية العلوم الإسلامية
إشكاليات التوظيف الحدائي للسيرة النبوية

سيدخل عليه الغار، ثم حدثت المفاجأة بطلب القراءة عقب دخول الوحي مباشرة، وفي كلا الحالتين نوع من المباغثة المؤثرة على الطبيعة البشرية بما يهز كيانه رعباً وفرعاً، وظهور آثار ذلك عليه حتى هدأت نفسه ، فتلقى رسالة الله متثبثاً، مغموراً بأنوار شهود العزة الإلهية في يقين لا يداخله أدنى شك في اصطفائه رسولاً للعالمين (٣٥) .

وهذا ما لم يعجب الحداثيون الذين ذهبوا إلى أن الوحي ليس مفاجئاً وإلزامياً ، حسب ما قاله نصر أبو زيد : " بل هو (الوحي) حديث عن إنسان تجسدت في داخله أحلام الجماعة البشرية التي ينتمي إليها ، إنسان تجسدت في أعماقه أشواق الواقع وأحلام المستقبل، والخطاب الأول من النص يجيب عن تساؤلاته.. والمتحدث إلى محمد بالوحي ليس غريباً عنه.. والآيات الأولى التي نزلت معانيها تجول في ذهنه.. ووصف الرب بالأكرم يهدف إلى تطيب نفس محمد اليتيم .. والنص يخاطب محمداً ويستجيب لهمومه.. " (٣٦) .

أما هشام جعيط فيقول: " قوة النبي تكمن في عدة عناصر: هو يتلقى الوحي بلهفة ومحبة، والوحي فتح إيجابي لندائه الباطن القديم " (٣٧) .

ج. التفسير الخاطيء لأمية النبي صلى الله عليه وسلم : كانت الكتابة خلال عهود الجاهلية التي سبقت عهد النبوة، عزيزة عند أمة العرب تصديقاً لقولة تعالى: (هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم)، وأن لكلمة (أمي) الواردة في هذه السورة معنى واحداً، وهو الجهل بالقراءة والكتابة، لذلك جاء وصف القرآن الكريم النبي صلى الله عليه وسلم بهذه الصفة التي لا يحتمل لها إلا هذا المعنى الذي أجمع عليه المفسرون الأوائل واللغويون والمؤرخون المسلمون.

وزعم أصحاب الاتجاه الحدائي أن ذلك الحديث مختلف مصنوع ، لأنهم يذهبون مذهباً آخر في تحديد معنى هذه الأمية ، فالأمي عندهم كما أورد كل من :

أولاً: " لخضر الشايب : " الأمي من ينتسب إلى جماعة ليس لها كتاب منزل أي لا يعرفون الكتب السماوية ولا ما فيها ، فهو يقابل أهل الكتاب من يهود أو نصارى " (٣٨) .

مجلة كلية العلوم الإسلامية
إشكاليات التوظيف الحدائي للسيرة النبوية

ثانيا : الصادق النهوم : " الأمية فكرة ولدت أساساً لتفسير قوله تعالى: (الذين يتبعون الرسول النبي الأمي) (الأعراف: ١٥٧) ، لكن هذا التفسير نفسه، هو مجرد خطأ ناجم عن سوء التفسير. فكلمة (أمي) لا تعني (غير متعلم) إلا في قاموس رجل جاهل حقاً " (٣٩) .

ثالثاً : الطيب تيزيني : " نشكك - بترجيح حاسم - في التصور الذي نشأ في سياق الفكر الإسلامي وتبلوره لاحقاً بعد محمد، والذي يرى أن الإعجاز يكمن في أحد أوجهه الكبرى، في أن محمداً لم يكتب ولم يقرأ، أي في أنه كان أمياً ، وذلك لأن هذا التعبير لا يعني : الذي لا يقرأ ولا يكتب .. " (٤٠) .

د. افتراءات صياغة ألفاظ القرآن الكريم : ينبىء كلام الله العزيز في عدد من الآيات الكريمات أن النبي محمد صلى الله عليه وسلم ناقل ومبلغ عن مولاه ، دون زيادة أو نقص أو تصرف أو تغيير ، فالألفاظ واضحة والمعاني محمولة فيها، وقد خاطب تعالى عبده ورسوله محمداً صلى الله عليه وسلم باسم الرسالة ، وأمرأ له بإبلاغ جميع ما أرسله الله به ، وقد امتثل صلوات الله وسلامه عليه ذلك ، وقام به أتم القيام، وكما في قوله الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ (المائدة:٦٧).

ولا شك أن هذا الرأي لم يعجب أصحاب الفكر الحدائي الذين كانت لهم وجهة أخرى، قاموا بتمويلها وتوجيهها بما يتوافق وأهوائهم ، فأخذوا يرددون بأن الله أوحى معاني القرآن، وأن محمداً صاغها بألفاظه وأسلوبه ، ومنهم

أولاً: نصر حامد أبو زيد: جاء ليدعي أن خلافاً كان بين العلماء في : ما الذي نزل به جبريل من القرآن، أهو اللفظ والمعنى، أم هو المضمون والمعنى ثم وضع الرسول على كل ذلك رداء اللغة العربية؟، ويقول : " وقد اختلف العلماء في الإجابة عن هذا السؤال إى فريقين : ذهب الفريق الأول إلى أن المنزل كان:

اللفظ والمعنى وأن جبريل حفظ القرآن من اللوح المحفوظ ونزل به " ويستطرد أبو زيد بأن بعض العلماء افترضوا أن الصياغة اللغوية لمضمون الرسالة كانت من دور جبريل (٤١) .

ثانيا: محمد سعيد العشماوي : لا يوجد في كتابات محمد سعيد العشماوي أثراً عن الإيمان بالقرآن الكريم وكل ما جاء به، وأنه معجزة الله الخالدة، بل طعن وشكك في إلهية النص القرآني، فزعم أن القرآن نزل على المعاني وقصد إليها، فيقول عشماوي: " إن المسلمين الأوائل لم يستفيدوا من اختلاف القراءة حقيقة دلالاته، لأنهم حجّبوا أنفسهم عنه، إذ لم يعنوا به وببحثه على أساس منهجي يفيد حقيقة هامة: أن القرآن نزل على المعاني وقصد إليها، وإذا كانت المعاني تقبل التعبير عنها بأكثر من لفظ فقد تضمن التنزيل صياغتها في لفظ، وأجاز النبي أن يعبر عنها بلفظ آخر يفيد معناه .. " (٤٢) .
وهو في هذه الدعوى لا يفترى فقط على الأمة ويسفه إجماعها المعصوم، وإنما يكذب على الله تعالى وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم.

٢. التصور الحدائي للسيرة النبوية

يمثل الرجوع إلى السيرة النبوية والتمسك بها حقيقة الإيمان بنبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وهو قائم على الأساسيين : الإيمان بحصول الوحي إليه على الحقيقة ، والإيمان بعصمته فيما يبلغه عن الله تعالى، وهذان هما أخص خصائص النبوة ، فمن لم يؤمن بلوازمهما لم يؤمن النبوة على الحقيقة ، ومن أنكر حجبية السيرة وآمن بالقرآن فقد تناقض (٤٣)، لأن ذلك لا يستقيم له، فإنه يلزم على قوله هذا الشك في كل ما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم عن الله تعالى قرآناً وسنة، وقال صلى الله عليه وسلم : (ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء) (٤٤).

وتأتي محاولات الحدائين لتوظيف الشبهات عن السيرة النبوية عبر إنكار كونها أصلاً في الاستدلال كالقرآن الكريم ، حيث وظف الفكر الحدائي جميع الجهود في الجوانب الآتية :

أ. شبهة تضعيف السيرة النبوية : وذلك من خلال (٤٥):

- أولاً : تضعيف المتكلمين للسيرة فيما يتعلق بالآحاد، ومحاولة طرد ذلك على المتواتر أيضاً.
ثانياً : إشاعة الاضطراب الحاصل بين المتكلمين في الحد الذي يحصل به المتواتر، ومن جهة الإشكالية الحاصلة بينهم في العلم الحاصل بالمتواتر، هل هو ضروري أو نظري أو يقال فيه بالتوقف.
ثالثاً : الحكم باستحالة وجود التواتر في الأخبار، واستحالة حصول العلم الضروري من جهته.

ب. شبهة الخيال الإنساني عن السيرة النبوية : يمكن ملاحظة هذه الشبهات عند الحدائى نصر حامد أبو زيد الذي يقول: " إن تفسير النبوة اعتماداً على مفهوم الخيال معناه أن ذلك الانتقال من عالم البشر إلى عالم الملائكة انتقال يتم من خلال فاعلية المخيلة الإنسانية التي تكون في الأنبياء - بحكم الاصطفاء والقطرة - أقوى منها عند من سواهم من البشر، فإذا كانت فاعلية الخيال عند البشر العاديين لا تتبدى إلا في حالة النوم وسكون الحواس عن الاشتغال بنقل الانطباعات من العالم الخارجى إلى الداخلى، فإن الأنبياء والشعراء والعارفين قادرين دون غيرهم على استخدام فاعلية المخيلة في اليقظة والنوم على السواء، وليس معنى ذلك - بأي معنى من المعانى - التسوية بين هذه المستويات من حيث قدرة المخيلة وفعاليتها، فالنبي يأتي دون شك على قمة الترتيب، يليه الصوفى، ثم يأتي الشاعر في نهاية الترتيب " (٤٦) .

ج. شبهة تفسير النبوة من خلال مفهوم الرجال العظام : تتداخل الشبهات التي يقول بها محمد أركون عن النبوة التي يطلق عليها تسمية الوظيفة النبوية ، بين ما يتعلق بشبهة الخيال وبين ما يتعلق بنظرية الرجال العظام التي هي إحدى نظريات القيادة المعتمدة في الدراسات

مجلة كلية العلوم الاسلامية
إشكاليات التوظيف الحدائي للسيرة النبوية

الاجتماعية ، فيقول أركون : " إذا استخدمنا التحليل التاريخي والثقافي والانثربولوجي (علم الإنسان)، فإن الوظيفة النبوية ينبغي أن تفسر من خلال مفهوم انتاج الرجال العظام .. أي كيف يتولد الرجال العظام وكيف يظهرون في التاريخ. والأنبياء من الرجال العظام بالطبع لأنهم يقدون البشر ويحركون التاريخ .. ولكن النبي يتميز عن هؤلاء الأبطال من خلال الأدوات التي يستخدمها والنوابض النفسية التي يحركها .. ويثير في الجماعة الأمل التبشيري أو الخلاصي، ولكن إذا ما علقنا التحديدات اللاهوتية المفروضة بخصوص هذه المفاهيم، فإننا نستطيع بسهولة أن ندمج الوظيفة النبوية في الآليات التاريخية- النفسية- الاجتماعية- المنطقية التي تؤدي إلى ظهور الرجال العظام .. فالنبي شخص ملهم ، راعٍ أو رؤيوي حكيم، صاحب خيال وثاب ، قائد ، روح جبارة قادرة على سبر أغوار المجهول، وانتهاك الحدود المضروبة على المعرفة.. " (٤٧) .

ولا شك أن هذه الصفات التي سطرها أركون للنبي يشترك فيها جميع الرجال العظام الذين لمعوا في التاريخ الإنساني، وقد حشر أركون بينها قضية تمتع النبي بالخيال والوثاب، وانتهاك الحدود المضروبة على المعرفة ، وهو بذلك يتبع أسلوب الحط من مكانة النبوة وهذا مراده.

الخاتمة

وبهذا فإنَّ اهل الحداثة ينشرون هذه الإشكاليات في المجتمعات الاسلامية من اجل انتزاع القداسة عن دينهم وعن التعلق الفكري به وايجاد جو ثقافي يرفض أن تكون هناك امتدادات فكرية عقائدية في المجتمع عبر السيرة النبوية التي تشكل حلقة الوصل بين الله تعالى والناس ، وهذه الحلقة هي التي تقلقهم فيعملون على فصمها .

ويبقى من المهم على المسلمين (مثقفين وعامة) الحذر من معايير الحدائين المزدوجة حينما يسمحون لأنفسهم بتبني مواقف أيديولوجية ماركسية أو ليبرالية، ويمنعون الناس من تبني مواقف أيديولوجية اسلامية لعدم تطابقها مع أفكارهم ، فالدين الذي جاء به نبينا الكريم صلى الله عليه وسلم وبقية الأنبياء عليهم السلام ، يتصل بجميع العلوم المعاصرة. والحديث في التاريخ الإنساني مصدره الشعور فضلاً عن اللاشعور، وهو حديث لا يخلو من الأخطاء والأكاذيب والأدلة الباطلة . أما السيرة النبوية فإنها براء من كل هذه العيوب، رغم اتصالها بجميع هذه العلوم ، وها هي القرون تمضي وأبطل فيها قول الآخرون ما أدعاه أولون ، وما زال صدق كلام النبوة باقياً على الزمان.

مجلة كلية العلوم الاسلامية
إشكاليات التوظيف الحدائي للسيرة النبوية

الهوامش

- (^١) سعيد ، خالدة (١٩٨٤) . الملامح الفكرية للحدائثة ، القاهرة، مجلة فصول ، المجلد الرابع ، العدد (٣) ، الدار المصرية للكتاب ، ص (٢٦).
- (^٢) موسوعة المعارف البريطانية (١٩٨٦) . مفهوم الإشكالية ، ص (٦٨٧) ، لندن.
- (^٣) انظر: الفيروزآبادي ، مجد الدين بن يعقوب (٢٠٠٥) . القاموس المحيط ، (تحقيق- مكتب تحقيق التراث- مؤسسة الرسالة)، ط٨، ج١، ص(٨٦٠)، مؤسسة الرسالة ، بيروت.
- (^٤) ابن منظور، جمال الدين بن محمد بن مكرم (١٤١٤). لسان العرب ، ط٣، ج٩، ص(٣٠٨) ، دار صادر ، بيروت .
- (^٥) ابن فارس ، أبي الحسن أحمد (١٣٩٢ هـ) . معجم مقاييس اللغة ، (تحقيق عبد السلام هارون)، ط٢، ج٦، ص (١٢٢) ، مطبعة الحلبي ، القاهرة.
- (^٦) عبيدات ، بسام محمد محمود (د ت) . الحدائثيون العرب وموقفهم من القصص القرآني، ص(١)، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية الشريعة، جامعة اليرموك ، أربد.
- (^٧) عبد اللطيف ، كمال (٢٠٠٤) . التحديث السياسي ومعاركه في العالم العربي ، لندن ، جريدة الشرق الأوسط السعودية، ص (١) ، في ٢٨ آيار ، العدد (٩٣١٣) .
- (^٨) النحوي ، عدنان (١٩٨٩) . الحدائثة من منظور إيماني، ص (١٣) ، دار النحوي للنشر والتوزيع، الرياض.
- (^٩) صالح، هاشم (٢٠٠٧) . اوغست كونت وتأسيس الحدائثة الغربية: البشرية في مراحلها الثلاث، الموقع الإلكتروني: <http://www.alawan.org/%D8%A7%D9%88%D9%A3%D9%A-.html>
- (^{١٠}) موسوعة المذاهب الفكرية المعاصرة ، من أبرز رموز مذهب الحدائثة من الغربيين ، الموقع الإلكتروني : <http://www.dorar.net/enc/mazahib/٧٧٨>
- (^{١١}) قاسم، جميل (١٩٩١) . والحدائثة الفكرية الإسلام ،مجلة الوحدة، العدد (٨٦)، تجمع العلماء المسلمين في لبنان، ص(٤٤) .

مجلة كلية العلوم الاسلامية
إشكاليات التوظيف الحدائي للسيرة النبوية

(^{١٢}) جاد، عبد الرازق، أحمد محمد (د.ت). فلسفة المشروع الحضاري بين الإحياء الإسلامي والتحديث الغربي، واشنطن، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ص (٥٣٣ - ٧١١) .

(^{١٣}) التادلي، أبو الحسن علي بن عبد الله (د. ت). الاعتبارات النظرية في الأحكام النجومية، ص(١٧)، مكتبة المصطفى الإلكترونية، الموقع الإلكتروني :

. <http://www.al-mostafa.com/disp.php?page=list>

(^{١٤}) أبو زيد ، نصر حامد (١٩٩٣). مفهوم النص ، دراسة في علوم القرآن، القاهرة ، الهيئة العامة المصرية للكتاب، ص (٢٤ - ٢٦).

(^{١٥}) البوطي، محمد سعيد (١٩٩٢) . العقيدة الإسلامية والفكر المعاصر، دمشق، ص (١٣٠) .

(^{١٦}) عمارة، محمد (٢٠٠٢) . التفسير الماركسي للإسلام ، القاهرة ، دار الشروق، ص (٤٢) .

(^{١٧}) تيزيني، طيب (١٩٩٧) . النص القرآني أمام إشكالية البيئة والقراءة، دمشق ، دار الينابيع ، ص (١٤٢).

(^{١٨}) عمارة ، مرجع سابق ، ص (٤٨) .

(^{١٩}) البخاري، محمد بن اسماعيل (١٩٨٧). صحيح البخاري ، ط٣ ، بيروت، دار ابن كثير، كتاب الإيمان، باب حب الرسول من الإيمان، رقم (١٣) .

(^{٢٠}) أركون ، محمد (١٩٨٧) . الفكر الإسلامي قراءة علمية، بيروت ، مركز الإنماء القومي، ترجمة هاشم صالح، ص (٧٢) .

(^{٢١}) أركون ، محمد (١٩٩٣) . من فيصل التفرقة إلى فصل المقال، أين الفكر الإسلامي المعاصر؟ ، بيروت ، مركز الإنماء القومي، ترجمة هاشم صالح، ص (٤٤) .

(^{٢٢}) عمارة ، مرجع سابق ، ص (٥٨) .

(^{٢٣}) خلف الله ، محمد أحمد (١٩٥١) . الفن القصصي في القرآن الكريم ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية .

(^{٢٤}) حسين ، محمد الخضر (١٩٧٧) . نقض كتاب في الشعر الجاهلي ، دمشق ، المطبعة التعاونية، تحقيق : علي الرضا التونسي ، ص(٨٤).

مجلة كلية العلوم الإسلامية
إشكاليات التوظيف الحدائلي للسيرة النبوية

- (٢٥) رواه أبو داود في سننه: كتاب السنة: الحديث (٤٥٩٧). والترمذي في سننه: كتاب الإيمان: الحديث (٢٦٤١) وابن ماجه في سننه: كتاب الفتن: الحديث (٣٩٩٢).
- (٢٦) القرني، محمد حجر حسن (٢٠١٤). موقف الحدائنة من أصول الاستدلال في الإسلام، الرياض، مركز البحوث والدراسات في مجلة البيان، ص (٥).
- (٢٧) أركون، الفكر الإسلامي قراءة علمية، مرجع سابق، ص (٧٦).
- (٢٨) أركون، محمد (٢٠٠٥). القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني، ط٢، بيروت، دار الطليعة للطباعة والنشر، ص (٨٤).
- (٢٩) أبو زيد، مفهوم النص، مرجع سابق، ص (٣٩).
- (٣٠) الشرفي، عبد المجيد (٢٠٠٨). الإسلام بين الرسالة والتاريخ، ط٢، بيروت، دار الطليعة، ص (٤٠).
- (٣١) تيزيني، مرجع سابق، ص (٧٥).
- (٣٢) أبو زيد، نصر حامد (١٩٩٢). نقد الخطاب الديني، القاهرة، سينا للنشر، ص (٩٥).
- (٣٣) جعيط، هشام (٢٠٠٠). الوحي والقرآن والنبوة، ط٢، بيروت، دار الطليعة، ص (٣٩).
- (٣٤) المرجع السابق، ص (٦٦).
- (٣٥) عرجون، محمد صادق (١٩٩٥). محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ط٢، دمشق، دار القلم، ص (٢٦٠).
- (٣٦) أبو زيد، مفهوم النص، مرجع سابق، ص (٦٥).
- (٣٧) جعيط، مرجع سابق، ص (١٠٣).
- (٣٨) الشايب، لخضر (٢٠٠٢)، نبوة محمد صلى الله عليه وسلم في الفكر الاستشراقي المعاصر، الرياض، مكتبة العبيكان، ص (٣٩٢).
- (٣٩) النيهوم، الصادق (١٩٩٥). إسلام ضد الإسلام، دمشق، رياض الريس للنشر، ص (٢٣).

مجلة كلية العلوم الاسلامية
إشكاليات التوظيف الحدائي للسيرة النبوية

- (٤٠) تيزيني ، مرجع سابق ، ص (٢٩٥) .
- (٤١) أبو زيد ، مفهوم النص ، مرجع سابق ، ص (٤٢) .
- (٤٢) العشماوي، محمد سعيد (٢٠٠٤) . حصاد العقل في اتجاهات المصير الإنساني، بيروت ، مرسسة الانتشار العربي، ص (٨٩) .
- (٤٣) أبو رية ، محمود (١٩٩٩) . أضواء على السنة المحمدية ، القاهرة ، دار المعارف ، ص (١٢) .
- (٤٤) البخاري، مرجع سابق ، كتاب استنابة المرتدين، الحديث ٦٩٣٣ .
- (٤٥) نويب ، حمادي (٢٠٠٥) . السنة بين الأصول والتاريخ ، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ص (٩٥) .
- (٤٦) أبو زيد ، مفهوم النص ، مرجع سابق ، ص (٤٩) .
- (٤٧) أركون، محمد (٢٠٠١) . القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني، بيروت، دار الطليعة، ترجمة: هاشم صالح، ص (٨٤) .

This study aims to limit the problems that tried some Arab modernists glued Prophet's biography and aboard the Hadith, the study concluded that the term modernism has spread in our time widespread in the media and literary circles in the Arab and Islamic countries, while staked Modernists to provide intellectual their project, the foundations hostile to the principles of Islamic law in secret, and fights ideals that came out of this law, after he described those ideals reactionary and underdevelopment, and had to board the hadith status important in perceptions of the so-called Balhaddathein, lies study the problem in the main question of how to employ the modernists of the biography of the Prophet and the A_kalyate . The study pointed to the hypothesis that the modernist ideology is one of the main challenges to the Islamic nation being aimed at influencing the Islamic religion, and to belittle the Prophet's biography and the Hadith and its sciences. The study comes to focus on the subject by the limits set forth in it, stand on the interpretations of the modernist ideology of the Prophet's biography. The aim of the statement of the positions of Arab modernists of the Prophet's biography approach and application, and to identify the cognitive foundations for the excesses of modernist thought the Biography of the Prophet, and suspicions that thought toward the Prophet's biography Erroneous interpretations issued by the modernists. And discuss ideas that Modernists tried to sneak them into the Prophet's biography.